

مفهوم الإنسان بين الحتمية الفيزيائية والمساءلة الفلسفية

The concept of man between physical determinism and philosophical accountability

بومدين محمد

جامعة سطيف 2 (الجزائر)، m.boumeddine@univ-setif2.dz

تاريخ القبول: 2025/03/13

تاریخ الاستلام: 2024/01/10

[Apostrophe & Quotation](#), [Capitalization](#), [Commas](#), [Conjunctions](#), [Dashes](#), [Ellipses](#), [Emphasis](#), [Endnotes](#), [Footnotes](#), [Italics](#), [Line Numbers](#), [List Groups](#), [Long Sentences](#), [Paragraphs](#), [Punctuation](#), [Repetition](#), [Sentence Fragments](#), [Semicolons](#), [Short Sentences](#), [Single Words](#), [Spelling](#), [Tabular Data](#), [Textual Evidence](#), [Transitions](#), [Verbals](#)

ملخص:

إن موضوع الدراسات السوسيولوجية في الفترة المعاصرة أصبح يأخذ طابع العلمية والتجريب حيث عرف تطور العلوم الاجتماعية والإنسانية فتح آفاق جديدة نحو بناء نظريات علمية تكاد نتائجها تعرف الدقة والثبات، مما جعل العلماء يصلون إلى مستويات عليا في تشخيص وبناء وفهم الأسس العلمية داخل الإطار الاجتماعي على وجه الخصوص. وتهدف دراساتنا هذه إلى محاولة الكشف عن القوانين التي تحكم العلم في المجال الاجتماعي وخاصة مبدأ الحتمية الذي نسعى من خلاله لمعرفة وفهم مدى قابلية للتحقق في الحقل الاجتماعي الذي يعرف بالتعقيد صعوبة الهدف الإجرائي وتحقيقه واقعيًا. ومنه إحداث المقاربة بين العلم كمعطي تجريبي والإنسان باعتباره كائنا معقدا يتصف باللاثبات واللايقين من خلال مبدأ الحتمية.

الكلمات المفتاحية: الإنسان؛ الإنسانية؛ البراديغم؛ الدراسات الاجتماعية؛ الحتمية؛ العلم.

Abstract:

The subject of sociological studies in the contemporary period has taken on a scientific and experimental character, as the development of the social and human sciences has opened new horizons towards building scientific theories whose results are almost accurate and stable, which has made scientists reach higher levels in diagnosing, building and understanding scientific foundations within the social framework in particular. . Our studies aim to try to uncover the laws that govern science in the social field, especially the principle of determinism through which we seek to know and understand the extent to which it can be achieved in the social field, which is known for its complexity and the difficulty of achieving the procedural goal realistically. Including bringing about an approach between science as an experimental given and man as a complex being characterized by impermanence and uncertainty through the principle of determinism.

Keywords: *Human, Humanism, Determinism, Paradigm, Science, Social studies.*

١. مقدمة:

يعتبر "سؤال الإنسان" من أوائل الأسئلة التي بحثها الفلاسفة منذ العصر اليوناني لليوم، ويعد سؤال الإنسان من أهم الأسئلة التي وجب خوضها والبحث فيها لما تكسوه من أهمية وتعقيد يحومان حول الإنسان ذاته. إن الإنسان كائن متعدد الأبعاد، فهي من جهة أولى يمتلك بعداً طبيعياً ومن جهة ثانياً يمتلك بعداً ثقافياً، وحديثنا عن الإنسان في المجال الفلسفي له علاقة مباشرة وواضحة بهذين البعدين بمقولة "الإنسان" هي مقولة مهمة لدى الفلاسفة وسؤال الإنسان فلسفياً سؤالاً مركزياً وهاماً جداً.

فمنذ اللحظة اليونانية التي أعلن فيها أبو الفلسفة "سقراط" بـ "مقولته الشهيرة حول الإنسان والقائلة: "اعرف نفسك بنفسك" فالمعرف للنفس أساس قويم يتعلق بفهم الذات البشرية ومن هنا كان الفكر اليوناني تأسيساً واضحاً للإنسان وراغباً في فهم مكنوناته وقضايه ومركباته، ويقل الشأن البحثي في موضوع "الإنسان" في العصور الوسطى مقارنة بما قبلها في الزمن اليوناني (époque grecque) أو بما يليها في الفترة الحديثة، حيث عرف العصور القرووسطية بنزول الكتب السماوية "كالتوراة والإنجيل والقرآن"، مما جعل الفيلسوف آنذاك لا يكاد يظهر له أثر، فالعقل عُيِبَ بفعل أوامر ونواهي رجال الكنيسة، حيث اعتبر التفكير تكفيراً، بل من أراد أن يودي بنفسه إلى الهلاك فله أن يفكر، وانتقلت الريادة من العقل إلى النص الديني المقدس، وتحولت السبل من "مركزية الإنسان" إلى "مركزية الله" وأصبح التفكير لا يخرج عن نطاق النص الديني المقدس، مما جعل الريادة تنتقل من الإنسان إلى الله ومن الأرض إلى السماء.

ما هو مفهوم الإنسان في ظل الصراعات السوسيولوجية التي ترمي به إلى تغيرات جديد وفقاً لأطر غيرت مجراه على المستوى الكوني الفيزيائي؟

وما هي توقعات الإنسان الجديد ما بعد الإنسانية وفقاً للدراسات العربية والغربية الجديدة؟
يهدف بحثنا هذا إلى محاولة سبر أغوار الدراسات حول الإنسان سواء في إطارها الفلسفي أو وفقاً للدراسات السوسيولوجية النفسية أو حتى على المستوى العلمي الفيزيائي الذي يضبط علاقة الإنسان بالعالم.

وسنحاول الاستعانة بالمنهج التحليلي من جهة والنقدي من جهة أخرى فالتحليلي اعتمدنا عليه في تحليل مفهوم الإنسان وتقديم الرؤية الجديدة للإنسان وأبعاده الفلسفية والعلمية الواقعية، أما المنهج النقدي نعمل من خلاله على انتقاد الرؤية التي تسعى لتقزيم الإنسان وتمييعه وفقاً للتشويؤ الذي طغى على الإنسان في زمن ما بعد الحداثة والعولمة..

أولاً: ماهية الإنسان وفق مبدأ الحتمية:

إن الإنسان كائن مفكر مبدع، ونتيجة لهذه الملكة فقد بدأ التفكير الإنساني ينصب على العالم الخارجي، من حيث هو عالم أقوى وقاس عن الإنسان، وهذا ربما جعل الإنسان لا يلتفت إلى ذاته ولا يفكر في إنسانيته بكل أبعادها حيث تميّزت "ثقافة الغرب في القرون القليلة الماضية بروح الفخر والتفاؤل، فخر بالعقل بما هو أداة الإنسان لفهم الطبيعة وسيطرته عليها، والتفاؤل بتحقيق أعز آمال البشر، وهو تحقيق السعادة الكبرى للعدد الأكبر من الناس" (فروم إ.، 2007م، صفحة 38) وما يفهم من هذا أن الإنسان وصل لتحقيق مبتغياته وآماله على عكس ما كان عليه في زمن ولي مديراً، إن العقل يناشد الرؤية التفكيرية القويمة بالتوصل إلى ما يرغبه العقل البشري وهذا الغرض الذي أولته أهمية بالغة الحضارة الغربية، حيث حقق الإنسان سعادته فكانت نتائج العلم انفجاراً في التطور الإنساني والحضاري، وانتقل الإنسان من العقلية ما قبل التكنولوجيا إلى مستوى العقلية التكنولوجية، حيث أضحت وسائل الإعلام والتكنولوجيا العصرية هي أساس الحياة الإنسان المعاصر وأصبح لا يتكلم إلى من خلال لغة العلم والآلة الجدة متطورة، وأوقع لغيره من العوامل الموازية للعالم الغربي على غرار العالم الثالث السائر في طريق النمو، انهياراً ليس له نظير، لما حققه الغرب من نتائج جد مُغرية.

لقد عرفت البحوث العلمية في مجال الفيزياء عدة مفاهيم وتصورات من بينها مفهوم الحتمية حيث يعرف هذا الأخير على أنه يعني وجود سبب ونتيجة تنتهي بالسبب حتماً والانتقال من (أ) يؤدي بالضرورة إلى وجود (ب) فهو اللزوم

والقضاء والضرورة. أي أنها تعني المحتوم، حيث أنه إذا توفرت "a" أدت بالضرورة الحتمية إلى وجود "B"، أما في اللغات الأجنبية: فإن الحتمية في الفرنسية *déterminisme* أو الإنجليزية *déterminism* أو الألمانية *determinismus* هي كلمة مستحدثة مبتكرة اشتقت وصيغت في القرن 17م، وهذا المصطلح بكل اشتقاقاته يعود إلى الأصل اللاتيني، *déterminer* الذي يعني "المحدد" أو "الثابت"، وهو بدوره يعود إلى أصلين في اللغة اللاتينية: *De* الذي يعني "عن"، أو "بخصوص"، وأيضاً *terminus* الذي يعني "الحد"، أو "النهاية"، أو "الهدف"، وأيضاً: *terminatio* الذي يعني "النهاية" أو "الختام"، وأيضاً التحديد، ومن الأصلين- حرف الجر والاسم- نشأ الفعل الذي يعني "حدد" (الخولي، 1989، صفحة 54). أي ضبط وحصر ومن ثم فإن الحتمية تسعى دوماً إلى تبين المعطى الكوني والوجودي بأسس ظاهرية وغير ظاهرية يجمعها الثبات والوحدة.

لقد مرّ الكون بثلاث انفجارات كوسمولوجية وبيولوجية وثقافية، ويعصف اليوم إلى انفجار علمي يمضي على وتيرة تسارع يكسبنا برقه يذهب بالأبصار العاصفة تكسف الطبيعة وتعيد ترتيب العلاقات، في المقابل نجد الثورة التي تكنس الأوضاع وتعيد تنظيم علاقات القوة وتوزيع الثروة، والعلم يقلب التصوّرات في قفزات كمية، ليحدث في النهاية ثورات علمية نوعية تنقلنا من براديجم إلى براديجم آخر إما مماثلاً للسابق وإما منقطعاً عنه، كما وصفه الفيلسوف الإبيستيمولوجي الفرنسي توماس كوهن أو باشلار، إما بفهم تراكمي معدل فيه وإما بتصور قطيعي. ويمكن القول في هذا الشأن بأننا "اليوم نمشي فوق زلزال علمي يقذف حممه دون توقف" (رزق، 2000، صفحة 75) ولقد عرف الإنسان بعد اكتشاف المنهج التجريبي بخطواته ومراحل بحثه، حركة فكرية متراكمة ونشيطة عملت على فصل العلوم عن الفلسفة، وكانت الدّعوة إلى التّخلي عن التفسير الغائي على أساس أنّ أية دراسة لا تكون علمية إلا إذا فسّرت ظواهرها بالأسباب الفاعلة التي إذا تكررت معها، أدت بالضرورة الحتمية (*déterminisme*) إلى نفس النتائج، هكذا كانت البيولوجيا لكي تقوم يجب عليها دراسة ظواهرها دراسة علمية دقيقة وبصورة ثابتة.

ليس العيب في وضع الإنسان موضع الاهتمام ولا مركزاً للقوة والقدرة والإرادة، ولكن ليس بمنطق جعله إلهاً أو جعل من نفسه موضع الرّب، ولكن محاولة التقريب بين ما هو "عقلاني" وما هو "وجداني" للاتصاف بقيم التكامل والتشارك هي رغبة في إعادة مراجعة تكوين الإنسان وتزويده بطاقة روحية وجدانية، حيث ينبغي أن "نمد جسور الحوار بين العقلانية والوجدان، ويكون لدينا عقل ممتزج بالشعور لتكن لدينا عقلانية منفتحة" (موران، هل نسير إلى الهاوية، 2012، صفحة 44) وهو ما أسماه "إدغار موران" بالسياسة الحضارية (*la politique de la civilization*)، التي تزواج بين ما هو طبيعي وما هو أخلاقي في إطار قوالب وجدانية، مضافة إلى العقلانية عبر قيم التسامح والتّعايش والتّربية والقيم النبيلة.

بحيث "ستكون مهمة السياسة الحضارية أن تطوّر أفضل ما في الحضارة الغربية وتطرح عنها أسوأ ما فيها وأن تحدث تكاملاً بين الحضارات بأخذها في الحسبان المساهمات الأساسية من الشرق من الجنوب، وستكون هذه السياسة الحضارية شيئاً لازماً للغرب نفسه فالغرب يزداد معاناة من هيمنة الحساب والتقنية والريح على جوانب الحياة الإنسانية ويزداد معاناة من هيمنة الكم على الكيف" (موران، هل نسير إلى الهاوية، 2012، صفحة 79). مما جعل الحضارة الغربية مفرغة من الجوهر الروحي الذي أدى بها إلى شيئية العالم. الشيء الذي ترتّب عنه النظّر إلى "المشكلة الأخلاقية" بمفاهيم وإشكاليات جديدة أفرزتها الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة" (الجابري، 2001، صفحة 68). وهذا ما تولّدت عنه أزمة أخلاقية دينيّة توارثتها الحضارة الغربية منذ عهد طويلة.

ثانياً: الإنسان من الوحدة إلى التعدد

تعتبر الفترة الجديدة للإنسانية على المستوى الكوني هي بمثابة الطرح الذي يتعبّر الإنسان يحيا ضمن نطاقات جديدة فهو إنسان عاقل من حيث عقلانيته و هو إنسان و إنسانا إقتصاديا من حيث تقنيته و إنسانا نفعيا من حيث هو إنسانا نفعيا وإنسانا نثري من حيث حاجياته و متطلباته ، و مستوى الحياة التي يعيشها تجعل منه طائنا مركبا فهو يعيش

من ثنائيات متعددة ومختلفة " فهو بين العقل و الجنون ، بين اللعب و العمل، بين الواقع والخيال، بين الاقتصاد و التبذير، بين النثر و الشعر(موران، 2012 ، صفحة(54))، نفهم من وراء ذلك أن الإنسان أصبح مركبا من ثنائيات واضحة فهو مرتب في أحضان الاقتصاد والشعر والواقعية واللعب، هذا الذي أحاله إلى مواقع جديدة تقتضي الفهم و التأويل من بابه الإنسان، باعتباره كائن مركبا لا عاقل يرفض عقلانيته واقتصاديته .

مما لا شك فيه أن الإنسان و باتفاق النفسانيين و الفلاسفة وأهل الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي أننا كائنات هذيانية طفولية عصابية في الوقت الذي نؤكد فيه عقلانيتنا فنحن نبكي و نضحك ، ونلهو و نلعب ونجد وننسى أحيانا أخرى أنفسنا في قمم العقلانية و موجات السحر التجديدي ضمن اجراء التقابل مع ما يكون فكرا لمستقبل المنعش، مال دمنا بشر فنحن نعيش بين الواقع و الخيال، بين الذات و الموضوع بين السحر والأسطورة و الدين "وعندما تهيمن الأوهام والتهور الجامع يخضع الإنسان الجنوني والعاقل ويوظف مهارة العقل في خدمة أوهامه " (موران، 2012 ، صفحة 55) إنه حين تتوقف المراقبة الثقافية والتقنية والمادية يصبح الفرد يخلط بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي وبين ما هو يقيني وما هو ظني وبين ما هو عقلائي وما هو جنوني و هنا نركز عن قانون جديد عرفه الإنسان وهو الجنون الذي لا يقبل إن نصفه بأنه عرض دخل على ذواتنا فنسميه مرض وشيء زائد عنا، كما أن هذا الأخير ظل محل نقاش وجدل منذ القديم حيث سادت فكرة الجنون لدى الإنسان القديم في حضارته وثقافته وأسطورته وحكمته الشرقية خاصة الشعراء على غرار روسو و باسكال وإيرازم وعرف عند كونفوشيوس في الحضارة الصينية وكذلك عند شوبنهاور وميشال فوكو وانشتاين وازراباون وفيكتور هيجو وغيرهم من أدباء وفيزيائيين وفلكيين وكيميائيين وما فتأ عقلا يفكر خاصة في الفترة المعاصرة ألا و اتهم بالجنون ومرض العصاب والتهلل العشوائي، حيث أن التفكير من على مستواها العلي يفوق حد العبقرية ليصل بنا الى حد الجنون، غير أن هذا الذي نسميه جنون لا يعاق ولا يُضاد بما هو عقلائي أو واقعي أو منطقي أو نظامي مرتب للذات البشرية، ولكن الجنون عين العقل لأن العقل الذي أحيانا يجن في قتل البريء بالبندقية، وجب إن نعلم أن صانع هذه البندقية في النهاية هو عقل فكر، فبلغ بذلك التفكير مستوى عالي جدا من مستويات الفكر والعقلانية، و لا ذلك ما كان ليصل بنا إلى اكتشاف هذه البندقية.

إن ما نراه سائدا اليوم على مستوى العالم الكبير الذي أصبح صغيرا بفضل التقنية و العولمة التي جعلته كقراءة صغيرة يديرها رجل واحد من مكان واحد، من رفض للعلوم الإنسانية و الاجتماعية والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم التي تهتم بالإنسان تؤكد دوما على أن الاهتمام بالإنسان، باعتباره مركزا للكون، بل هو الكون الصغير في مقابل إن الكون إنسان كبير، مؤكدة هذه الأخيرة على أن الفرد لم ينقرض بسبب الجنون، ولكن مؤشر " الاندثار لديه يبدأ حينما تبدأ العقلانية تصل حد التقنية التي تجعل منه آلة مفككة و مفخخة في الآن نفسه كونه أصبح محاصرا منها، و يمتلك مستوى محدود فيها، هذا جهة في مقابل ذلك اهدر وقت الفرد في زمن ما في الطقوس و الرقصات والأساطير التي تعد و لا تحصى" (موران، 2012 ، صفحة(56))

إن العلاقة التي تضبط المستوى الإنساني بين ثنائية العقل والجنون لم تكن مضادة ولا متنافرة ولكنها على الدوام خلاقة مبدعة ونافعة، كونهما في علاقة حوارية جادة الأول فيها مخرجا للثاني، والثاني مقوما للأول في أحيحة أخرى باعتبار أن الإنسان كائنا معقدا ومركبا ومتشابكة من أوهام ورغبات ووجدان وأحلام وآمال وقلق تجاه المعيش، من جهة ومن جهة أخرى تُجَاه المصير.

اعتبر أفلاطون في الحضارة اليونانية أن الجنون رغم انه مقابلا للعقل إلا انه في أحيحة أخرى داعيا إليه من نهج مخالفا بطريقة مختلفة، فقد اعتبر هذا الأخير إن " ديكا " القانون الحكيم هو ابن ابريس أي التهور، فالحكمة هنا تقتضي مسألة جديدة تتمثل في أن الحكيم قد يؤخذ صورة المجنون، في مقابل ذلك من تقديس وعبادة للعقل أدت إلى المقصلة. إنَّ التَّربية باعتبارها علم إنساني، يحاول سبر أغوار التعقيد الإنساني فهي بذلك تحاول أن توضح لنا مدى تشخيص المصير المتعدد للإنسان من الناحية الاجتماعية و من الناحية الفكرية والتاريخية، فالتربية أحالت الإنسان إلى دراسته على المستوى المعقد والمبين لحقيقة هذا القلق تجاه المصير المحتم، بحثا عن السعادة بحثا عن الهوية، بحثا

عن حقيقة المريء في حياته تسودها التقنية، التكنولوجيا، تسيطر عليها الثقافة الجمهورية التي صرح فيها فرانسيس فوكوياما حينما يعبر قائلا "أنا الآن مرتاح مادام الصومالي الفقير يحمل بين يديه قارورة "كوكاكولا" في مقابل الثقافة الشعبية التي تقول للإنسان الصومالي بأنه عليك افتراض الحصار والحلفاء، والحياة مع الغابة والجمال والجمال .

ثالثا: الحتمية وسؤال الإيمان الوجودي:

إن الإيمان بالحتمية، هو "الاعتقاد بأن كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية هي نتيجة حتمية لشروط ثابتة، ضرورية، كافية ومعينة فلا تحدث الظاهرة بدون توفر شروطها، وإذا توفرت هذه الشروط وقعت الظاهرة حتماً، فليس للطبيعة محل للصدفة، أو الاتفاق كما يفهمه عامة الناس، والذي ليس هو إلا نتيجة لاشتباك حتميات كثيرة، فالحتمية أساس العلم، بدونها لا يمكن وضع القوانين، ولا التنبؤ بالحوادث وبالتالي لا يمكن تشييد العلم ولا ينبغي الخلط بين الحتمية العلمية والجبر، كما يفهمه بعض الناس إذ هناك فرق كبير بين نوعية القضايا الطبيعية ونوعية المشاكل في ما بعد الطبيعة" (رزق، 2000) إن العلاقات الكونية محكومة بتراتبية ثابتة، ون الذين أقروا بهذا التوجه نجد العالم غوبلو الذي نجاهه يرفض رفضاً قاطعاً الإيمان بالصدفية، حيث أعلن موقفه بأن الطبيعة للصدفة والتلقائية والاحتمال حيث اعتبر الكون متسق تجري حوادثه وفق نظام ثابت، إن النظام الكوني كلي وعام مما يستلزم أن القوانين العلمية صادقة صدقاً مطلقاً لأن اليقين يسود جميع الظواهر الطبيعية بحيث تتكرر حوادث المستقبل بنفس الطريقة التي تظهر بها في الحاضر مما يسمح بالتنبؤ. وقد أرجع البعض أن هذا ارتبط أساساً بفيزياء "إسحاق نيوتن" الذي أعلن على أنه لا يمكن قبول الأسباب إلا الضرورية منها لتفسير الظواهر" (newton., 1966., p. 02) كما رفض رفضاً قاطعاً القول بالصدفة قائلاً: الله لا يلعب لعبة الزرد" (لقاط، 2014، صفحة 43) من الأمثلة التي تبرهن على وجود الحتمية أن التيار الكهربائي يسبب انحراف الإبرة المغناطيسية وارتفاع درجة الماء فوق (100) درجة يحدث التبخر. رغم ذلك إلا أن إسحاق نيوتن يرفض رفضاً قاطعاً تلك التصورات الميتافيزيقية التي بإمكانها أن ترجع الظاهرة العلمية إلى مستوى ميتافيزيقي مما يجعلها خرافة، وسرعان ما انتقل مفهوم الحتمية من مجال الفيزياء إلى مجال علم الفلك ويظهر ذلك عند "لابلاص" الذي قال في كتابه "نظرية في الاحتمالات" الحالة الراهنة للكون نتيجة لحالاته السابقة وسبباً لحالته اللاحقة ولو استطاع العقل الإحاطة بمواقع الأجسام وطبيعة حركتها لأصبح علمه أكيداً و يقينياً فالحتمية مبدأ ثابت مطلق لا يتغير. إذ يتحرك الكون وفقاً لجملة من القوانين، "وهو معقد ولكنه بسيط في الوقت نفسه، فهو مركب بدقة لا متناهية، في وحدات أزلية، تكون تراكبها مستوى جديداً من الوجود، تنظمها بدورها قوانين نوعية، وفق المستوى الجديد، في حركة تراكبية مستمرة للقوانين، تندمج النهاية في وحدة عضوية إلى أجل مسمى لها" (رزق، 2000، صفحة 188) وبذلك يكون البناء العلمي، مقابل سقوط الخرافة والأسطورة وانهيار قاعدة الصدفة والعبثية الكونية، ودحض نظريات الغموض الكوني، فالعقل محكوم بتوافر جملة من "الحتميات والأحكام المطلقة. وحشر الفكر في زاوية الثنائيات الضدية وقسم الأمور إلى قطبية حادة ناجمة عن تفكير خطي linéaire ذا بعد واحد سببه المنطق الأرسطي" (كريد، 2015، م، الصفحات 166-167). والذي بدوره قام على ثلاث مبادئ أساسية وثابتة لا تتغير في نظره وتتمثل في "مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع وهذه الحتمية التي يمكن وصفها بالسنتية الكونية في فهم الكون، استطاع العقل أن يصل إلى ثلاث أمور جوهرية: فضلاً على سقوط الخرافة، أدى ذلك إلى التمسك العلمي من خلال التراكم المعرفي البطيء، أي انه وضع قدمه في أول الطريق ليس له كمونياً تسخيرية، والتسخير هو الخدمة المجانية، وهي متاحة ومعرضة لكل من يضع يده على سر القانون السرمدي في الوجود. كما "نحصل دائماً على إمكانية توقع صارمة، ونستطيع أن نعتبر الحتمية قد أقيمت بضرب من التقارب الأقصى" وأثبتت السنة الوجودية بان القوانين تعمل بشكل "شمولي" وعام، حيث أن فيه قوانين مشتركة بين العوالم المتوازية، "فقانون الجاذبية موجود في المشتري وعلى ظهر القمر مثله في الأرض، وأثر الحرارة على المعاد يعمل في المريخ كما هو في الشمس، والانشطار النووي يحدث في كل نجم بما فيه شمسنا المتألقة منذ خمسة مليارات سنة تستهلك في اللحظة الواحدة أربعة ملايين من الهيدروجين" (رزق، 2000، صفحة 192) كما أن القوانين رغم شموليتها إلا أنها "نوعية" فالقانون الكيماوي ليس هو القانون الفيزيائي والقانون المادي غير البيولوجي، فالمعادن تتمدد بالحرارة، والمد

والجزر في بحار العالم يتأثران بحركة القمر ودورانه، والغازات تنكمش بالضبط، تدور الأرض حول الشمسي في حركة نوعية مترنحة إهليلجية، ويتم سيلان الدم في الأوعية بين التخثر والتزيف في ميزان، وتفرض الهرمونات في الجسم بنسبة مقدرة" (رزق، 2000، صفحة 193) وذلك مصداقاً قوله تعالى: (إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر، صفحة 46) وكل شيء في الكون مقدر بمعطيات فيزيائية دقيقة عجز الملاحظة عن فك شيفراتها وكشف الح بالإضافة إلى قانون قاعدة أخرى تتمثل في "تراكب" القوانين والتي تتمثل في سببية القوانين، "والأمور آخذ بعضها برقاب بعض في سلاسل سببية، إلا أن التقاء القوانين وتراكبها يخلق أوضاعاً جديدة، فارتفاع الحرارة إلى المائة يحول الماء إلى بخار، وانخفاضه إلى الصفر يُقلبه إلى جليد، ويزداد حجماً في تناقض استثنائي للماء، غير مفسراً عقلياً تماماً، فالمواد تنكمش وتتقلص مع التجمد والبرودة، والماء يفعل عكس ذلك فيتمدد وينتفخ، وانخفاض النشادر إلى درجة (120) تحت الصفر يقلب الغاز إلى سائل، وهو المبدأ الذي استفيد منه في صناعة البرادات، وحفظ الخلايا في رحلة تشبه الأبدية... والحامض النووي في الخلية يتعرض من حين لآخر إلى ظاهرة الطفرة Mutation مما يغير من طبيعة المخلوقات" (رزق، 2000، صفحة 193). وهذا ما يسمح للعلماء دوماً بالتنبؤ والتسخير بما تتصف به العلوم من ثبوت في أغلب قوانينها، مما يسهل على بناء العلاقات الدقيقة في قوانين العلوم ونظرياتها.

الإنسان ومنذ الزمن الأول وهو يحاول دوماً إعمال عقله فيما قد يفيد له حل مشكلات عديدة يطرح عنها جملة من الأسئلة في حياته اليومية، وقد كان فضول الإنسان مروحاً في كثير من المسائل والقضايا التي تشغله في حياته، والتي تدفعه للتساؤل عن كثير من الأشياء، ولما كان تفكير الفرد قاصراً في وقت سلف فإن كل ما كا يطرح أمامه يثير ملكته الفكرية، بل ويحرجه ويقلقه، مما يدفع الإنسان إلى ابتكار جملة من الأساليب والسبل التي يتخذها بديلاً مفسراً لكل قضية أمامه، بدءاً من تحولات الكون وتغيرات العالم التي تطرأ كل مرة، "رياح وأمطار وأعاصير وبراكين وغيرها من الحالات"، هذه الأخيرة جعلت الإنسان بعقله القاصر يقف عاجزاً أمامها، مع محدودية ما يملك من قيم وأفكار، هذه المشكلات الطبيعية وخاصة مشكلة "الموت" جعلت بداخله تتكوّن جملة من الأفكار والتصورات والمعتقدات التي قد تجيب عن بعض أسئلة هذا الإنسان البدائي، مما أدى إلى اختلاق ثقافة دينية تنشأ لديه، وتتولد بداخله، حيث كانت بداية ممارسة بعض المعتقدات على أرض الواقع من قبل هذا الأخير.

هنا بدأ تأمل الإنسان في قضايا الطبيعة والكون والحياة والموت، تولدت ثقافة شعبية مدججة بروح الدين، والمعتقد والفكر والتأمل، مقابل تقدم التطورات الفكرية والعلمية لدى بعض المجتمعات الموازية، وهذا التطور أدى إلى مراجعة بعض الأفكار الدينية والتي تمثل المقدس لدى الإنسان خاصة في فترة العصور الوسطى، التي عرفت بسيطرة الدين على العلم والعقل، حيث تراجعت المستوى الفكري الذي عرفته الحضارة الغربية مع اليونان القديم.

وفي هذا العنصر لا يهم الحديث عن "الدين" كنصوص مقدسة، ولكن تهمنا الثقافة الدينية كممارسة وتفسير وفهم، وكيفية اختلافها وتنوعها وتبنيها، فالحديث عن الثقافة وعلاقتها بالدين هو الحديث عن "المفهوم والأفهوم" المفهوم الديني ثابت كونه منزل إلهي مقدس، بينما الأفهوم أو كما نفهمه نحن فنمارسه من خلال هذه القنوات والتصورات، وإن تحدثنا عن الدين كنصوص سماوية مقابل الديانات كممارسات شعبية إعتقادية، نلاحظ أن النصوص الديني ثابت لا يتغير مع مرور الزمان، مقارنة بالديانات الوضعية التي تتغير كل مرة نحو تصورات جديدة ومفاهيم مبتدعة في المنظومة الدينية التي قد لا تمت للدين المقدس بأية صلة، لا من قريب ولا من بعيد، لأن الإرادة البشرية تتدخل فيها، وتعمل على دمجها من حيث يدري أصحابها أو لا يدرون، فيخلطونها بالفهم الاجتماعي، فالتدين هو ضرورة يجب أن تتوفر في حياة الفرد كما دعى لذلك هيجل الذي يقر بأهمية التدين وبأنه "عنصر أساسي في تكوين الإنسان و جزء من ماهيته" (بلكا، 2008، صفحة 121). حيث يعطي هذا الأخير معنى عميق للإنسان من خلال التفاته لروحه التي تسكن جسده، وهنا يظهر ذلك الجدل الذي يتجلى في حالة "التعامل والتقارب بينهما فيقترّب الإنسان من الشعور ليرضيه، مكتسباً منه الرضا الذي يمدّه ذلك الإحساس للإنسان أو المتعبد.

وقد يخلط الكثير من العقول بين ما هو ديني سماوي وبين ما هو ثقافي تنص عنه العادات والتقاليد والأعراف داخل المجتمع، فمثلاً في لباس المرأة وحجابها حدث صراع واضح بين الدين والثقافة الدينية كممارسة، وتولد عنه عنف لسبب عدم فهم المقاصد الدينية من وراء ذلك" (الرحمن، 2017، صفحة 25). وأصبحت هناك العديد من الأفكار التي ليست لها علاقة بالدين تحوّلت إلى أفكار تمارس كأنّها دينيّة بحتة، مُنزلة من فوق سبع سماوات، عن طريق الوحي، مما جعل الثقافة تفقد عناصرها الميمية، في الآن نفسه فقد الدّين روحه الطّاهرة والثّابتة والنّقية، ليُخلط بينه وبين الممارسات الثّقافية الّتي نص عنها الآباء والأجداد، وهو ما سماه البابليون والسكان القدامى لحضارة الأناضول (تركيا حالياً) بأرواحية الأجداد، حيث يبقى الأحياء محكومين بالأموات وينصوبهم القديمة التي توارثها الآباء عن الأجداد.

رابعاً: الحتمية في العلوم الاجتماعية:

وانتقل مفهوم الحتمية أيضاً في العلوم الاجتماعية من حيث العادة في السلوك، والثّقافة والفهم ومن حيث، أنّ "الاختيار بين الأفعال يمكن تفسيره بالشروط والظّروف المحيطة بفاعل الفعل، مما ينفي دور الإرادة وسلها من الأفعال، أي نفي الحرّية بالقول بالجبريّة. هذا أولاً، أما ثانياً فهو الأصل، والأول ترتب عنه كنتيجة له- هو "الحتمية الكونية" الذي يعني أنّ كل ما يحدث يُشكّل حلقة الأحداث والترابطات العلّية. ومعنى أن مبدأ الحتمية الكونية القائم على "مبدأ العلّية" لم يتشكّل إلا مع العلم الحديث ففي بعض الحالات النفسية التي تشغل بها العلوم الإنسانية (science humaine) نجد بعض الظواهر التي تكون ثابتة محكومة بنظام مطلق إنها ظواهر لا تتكرر بنفس الطريقة ونفس الشعور ونفس الأثر، فلا يمكن للباحث أن يصطنع الحب والكره أو التفاؤل والتشاؤم حتى يتحقق من صحة فرضياته، فهي ظواهر تفلت من قبضة الإرادة والمنطق. فهو مثلاً في الفترة المعاصرة وبحسب التصوّر الفرويدي من خلال كتابه "قلق في الحضارة" عندما وجه نقد كبيراً للحضارة الغربيّة القائمة على أسس لم تعجبه ولم تسلم النظريات الاستهلاكية والصناعية من نقده حيث جعل الإنسان يعيش بعداً وهو ما أكّده "هربرت ماركيز" من خلال كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد"، عندما حوّل الكوجيطو الديكارتية من قاعدة "أنا أفكر إذن أنا موجود" إلى قاعدة موازية لها "أنا أستهلك إذن أنا موجود". حيث اعتبر "فرويد" بأن الإنسان محكوم بنزعة الغريزة فاللاوعي هو إحدى الخطوات الحاسمة التي أنجزت في معرفتنا للإنسان وفي مقدرتنا على تمييز ظاهرة حقيقة السلوك الإنساني" (فروم، 1988، صفحة 12) وعليه فالإنسان في المنظور الفرويدي هو إنسان عالمي متعالٍ، وهو محكوم ومحتوم وفق نظام تحركه قوتان هما: - دوافع حفظ الذات والدوافع الجنسية، وكل أفعال الإنسان - أو سعيه نحو فلسفة الفعل لا تخرج عن هاتين القوتين. وتتمظهر أفعال الإنسان وفق لذلك في كل نشاطاته الدّينية والسياسية والفنية وغيرها..

وهو ما ذهب إليه مالك بن نبي هناك أسباب واضحة تتعلق بالحضارة وعلوم الإنسان، فكل حضارة تقوى بتوفر أسباب معينة تؤدي بها إلى انتقال حضاري، فالعالم الغربي سبق العالم العربي الإسلامي بحوالي ثماني قرون لأنّ هناك ظروف وأسباب توفرت في البلدان الأوروبية جعلت الرّيادة لهم، ويرد "مالك بن نبي" عن المفكرين الذين يُنادون بأنّ الدّولة سبباً واضحاً في تخلف المجتمعات وأنّ السّياسة المنتهجة من طرف الحكام هي التي تلعب دورها الكبير في ذلك ولا ينبغيها مالك بن نبي لكنه يعتبر أنّ "الحكومة مهما كانت ما هي إلا آلة اجتماعية تتغير تبعاً للوسط الدّني تعيش فيه وتتّوّن معه، فإذا كان الوسط نظيفاً حرّاً، فما تستطيع الحكومة أن تُواجه بما ليس فيه، وإذا كان الوسط متسماً بالقابلية إلى الاستعمار فلا بد من أن تكون حكومته استعمارية" (نبي، 2000، صفحة 30). وهذا يعني أن "مالك بن نبي" يبرئ السياسات والحكومات والتشريعات في مستوى القابلية للاستعمار وحتى المقدرات والمؤهلات الّتي تمتلكها الدّولة من عدمها لا دخل لها ما دامت ضمن نطاق عالم الأشياء وتبقى الأنفس التي تمتلك القابلية للتخلف هي الأساس في ذلك، لأنّ ما بالنفس لا نستطيع تغييره أبداً مهما حاولنا.

كما نجد الفيلسوف الفرنسي إدغار موران يؤكد من جهته بأنَّ التَّاريخ لا يسير وفق خط مستقيم متجهاً نحو طريق ثابت، ولكنَّه يتأرجح بين إلتواءات وزحزحات تُسببها الخلخلات التَّاريخية من أحداث وأزمات وتجعله مضطرباً ومتحولاً من الدَّاخل والخارج .

كما أنَّ التَّاريخ هو جملة براديغمات النَّجاح فيها للبراديغم الجديد يعني بالضرورة الخروج فيها عن المألوف، حيث يضي ذلك إلى تغيير المنظومة و كذا النظام السائد في مرحلة زمنية ما ولد و نشأ فيها ان للعبة المصير " تتضمن تحويل مسار الأفعال و هذا ما أسميته علم بيئة الفعل ومبدأه الأول هو : إن أي فعل ، حالما يلقي في وسط معين ، يدخل في لعبة بين الأفعال المترابطة المرتدة التي تغير مسارها ، و تحولها ، بل تقلب مسارها و بهذا يفلت من إرادة صاحبه ويمكن حتى أن يرتد ضده " (موران، النهج انسانية البشرية الهوية البشرية، 2013، صفحة 25) ويضرب لنا إدغار موران مثالا واضحا من خلال ردة الفعل الارستقراطية بعد الثورة الفرنسية سنة 1789 م التي قادت من خلال صيرورتها إلى تأسيس إمبراطورية ، و أعلن نابليون الثالث الحرب على بروسيا ما تسبب في انهيار سلطته و سلطة فرنسا و فجرت الثورة فرانكو المضادة في اسبانيا سنة 1936م و شرع غورباتشوف في عملية الإصلاح السوفياتي ، ما يريد الوصول إليه و هو باختصار واضح ان التاريخ لا يسير بطريقة مستقيمة بل هو عقدة مكونة من نظام و الفوضى و التنظيم .وهو بذلك خاضعا لحتميات و مصادفات في الوقت نفسه ، إن ما عرفه التاريخ من تقلبات متعددة ومتنوعة ومختلفة و مفتوحة عنت بالنسبة لموران خروجاً عن المألوف ، فكل الأشخاص الين حملوا لواء التغيير و التجديد هم أناس بالنسبة لإدغار موران خارجون من المألوف " فموسى والمسيح، وبولس ومحمد خارجون عن المألوف، وخارج عن المألوف كل من كوبرنيكوس وجاليليو خارجون عن المألوف إزاء دينهم و علمهم، وخارجون عن المألوف إزاء أغلبية زملاءهم من الشباب أنشتاين و فرمي، وماري كوري ، وواطسون " (موران، النهج انسانية البشرية الهوية البشرية، 2013، صفحة 248) فضلا عن الحكماء والسياسيين والقادة والأباطرة والحكماء " أمثال نابليون و هتلر و ديغول و لينين الخ.

بالإضافة إلى الاكتشافات الجغرافية والعلمية وتاريخية تعد بمثابة الخروج عن المألوف ، و المروق عن البراديغم القديم في صالح براديغم جديد ، بالإضافة إلى النظم الاقتصادية الرأسمالية والشيوعية الثورة الزراعية والصناعية ؟، القرارات الجريئة كلها خروج عن المألوف ، فشك مونتين و عقلانية سبينوزا وعبقريه سرفنتس وجرأة ماركس وفرويد أنشتاين وشابلين هي خروج عن المسحية و اليهودية، إذن هي خروج عن المألوف. ويعتبر الخارج عن المألوف الذي ينجح في التجذُّر ينشئ وسطا صغيرا جدا حيث يجد عشه الأول، وينمو بإنشاء شبكات، ومجموعة تجمل الحقيقة الجديدة وهذه الحقيقة يحكم عليها المدافعون عن الحقائق الراسخة بأنها هرطقة ، تثير كراهية المدافعون عن الثوابت القاتلة (موران، النهج انسانية البشرية الهوية البشرية، 2013، صفحة 249) ويبرز الخروج عن المألوف في قمة الدول حينما أحيانا ، حينما تسن بعض القوانين الجريئة ضد الشعب المحكوم أو القوانين الدستورية، أو القوانين التي تحرك الدولة في مبادئها الخارجية، التي تكون جريئة ضد باقي الدول، تكون بمثابة الصيرورة التاريخية بطيئة منبثقة عن الخروج عن المألوف أيضا، تتكلم بثورات تكون بمثابة اللحظة الخارقة لكل ما هو مألوف وقديم في شتى المجالات التي نجح فيها على مر العصور و فيس كل الأمصار والأقطار .

خامسا: الحتمية وآليات التغيير السوسيولوجي في الفكر المعاصر

وكل أمة حاولت أن تنهض يجب أن تبدأ بالتَّغيير على المستوى الدَّاخلي لأنَّ كل مقام فكري أو ثقافي أو حضاري لا بد أن ينطلق من الداخل، ليواجه بعد ذلك ما هو خارج عنه في العالم الخارجي، وما في العالم الخارجي إلا انعكاس لما هو في العالم الخارجي، لأنَّ كل فرد لا يمكن له أن يكون ضمن نطاق التقدم نفسيا لا يكون ممتلكا لتلك القابلية الحضارية في الخارج وهو ما جاء في الآية الكريمة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (سورة الرعد 11). بالتَّالي ليس

الاستعمار من جلب لنا التخلف، بل السنة الكونية التي تقوم على حتمية حضارية تفضي للقول بأن تخلفنا هو من جلب لنا الاستعمار.

غير أنّ الحتمية في العلوم الإنسانية وإن توفرت فإنها قد تتطلب أعمار أجيال لكي تتحقق، عكس العلم البيولوجي فمثلاً "الكشف عن قوانين التاريخ يتم بشكل معكوس، فنتائج الأحداث تقع في المادة بشكل لحظي أي، فتقريب النار من الحليب أو الشمع أو البارود يحدث أثره المباشر، فالحليب يفور والشمع يذوب والبارود ينفجر، ولكن البيولوجيا تحتاج ومنماً أطول لتبين نتائجها، فالعمليات الجراحية تتفاوت بنتائجها بين جراحة الأوعية خلال ساعات، وجراحة البطن التي تولد نتائجها في أيام والجراحة العظمية التي تمتد لأسابيع كي تلتئم الكسور، وفي إصابات الأعصاب الأشهر بأكملها" (رزق، 2000، صفحة 196) هذا ما تعلق بالكائن الإنساني أما في مقابل ذلك في الطبيعة فنلاحظ الأمر يتطلب وقت أطول بكثير يصل لسنوات عديدة حتى تتبين نتائجه، "ففي الطبيعة حتى تنم الأشجار تحتاج زمناً أطول، وفي النفس الإنسانية حتى تلتئم من الصدمات تأخذ أشهر ممضية وسنوات عجافاً، ولكن نتائج الأحداث في التاريخ يتطلب عمر الشعوب والأجيال، كي تتم الاستفادة من موعظة التاريخ هذه، ولا يتم التشبع باز فهمها وهضمها وبقدر من خلال معرفة حركة التاريخ برؤية الأحداث منظورة بشكل مقلوب إلى الخلف" (رزق، 2000، صفحة 197). والدليل يضح في قوله تعالى في قوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ) (البقرة 249) أي أن نتائج التاريخ تأخذ زمناً طويلاً لاستخلاص النتائج رغم سنيها.

بالإيمان بالحتمية بات أمراً مؤكداً من خلال ما تبين في العلوم الطبيعية والبيولوجية والفيزيائية والكيميائية والفلكية وحتى العلوم الإنسانية "علم النفس والاجتماع والتاريخ والحضارة والأنثروبولوجيا وغيرها"، مما يدحض مثل تلك "المزاعم الرخيصة، والأفكار الساذجة، والنكسات الفكرة التي تدعو الناس إلى العودة إلى الوراء، إلى عصور السحر والشعوذة والدجل والخوارق والمعجزات، مرفوضة في الأوساط العلمية رفضاً باتاً، وهي لم ترفضها حبا في الرفض، ولا هي كذلك تتعالى عليها، بل لقد ثبت من خلال تحريات طبية وعلمية دقيقة، أنها خزعات قد تضر ولا تنفع" (المحسن، 1978م، صفحة 78) من ثمة كانت الأبعاد العلمية، تعمل على تسخير الطبيعة لهن وإخراجها من غياهب التيه والظلال إلى تبيان العالم والكون والطبيعة وكشف أسرارهم لم يسبق للإنسان الماضي أن توصل لذلك، فضلاً على تفسير ظواهر الطبيعة بشكل أدق وأعمق مما كان عليه، وإبعاد الجهل عن فهم الطبيعة بفهم لم يكن الأمر عليه البتة.

بالإضافة إلى مبدأ الحتمية الذي مثل منظومة الفكر التبسيطي، وأسس لقاعدة العلم الكلاسيكي، نجد مبدأ السببية مبدأ الفصل الاختزال، كما تعرفنا عنهم في فصل سبق، بالإضافة إلى مبدأ آخر قمت عنه المنومة التبسيطية الاختزالية والمتمثل في مبدأ الاستقراء. حيث يعدّ هذا المبدأ من بين أكبر المبادئ التي رفضها إدغار موران رفضاً قاطعاً، "فالفكر المركب يرفض إطلاقاً الوضوح، الثبات، والحتمية" (الخولي، 1989، صفحة 45) ولا اعتراف بالفصل والاختزال، وهي مبادئ المنظومة الإبتيمولوجية التي هيمنت على العقل الغربي لمدة طويلة من الزمن. وقد قدم عن ذلك "إدغار موران" بديلاً يتمثل أساساً في منظومة التعقيد، فالأفكار البسيطة عند موران تحيل "للاختزال واليقين والدوغمائية المقيتة التي تُنادي بالوضوح والثبات والحتمية التي لا تجد ضالتها في النسق التعقيدي الموراني البتة. كما يحاول الفكر المتعقّد أن يرى ما يربط الأشياء بعضها ببعض وليس أشكال حضور الأجزاء في الكل فقط، بل أيضاً حضور الكل في هذه الأخيرة" (morin, 2015, p. 19) ويعتبر المنهج الاستقرائي كمنهج عقلي ينتقل مما هو خاص إلى ما هو عام في العلم، كما ذهب لذلك "برتراند راسل" على أنه سلوك ينتقل فيه من الخاص إلى العام، ولذلك يسمّى بمبدأ التعميم، وقانون الاستقراء لا يمكن بآية حال أن يكون قانوناً منطقياً، إذ من الواضح أنه قانون ذات دلالة خارجية" (فيدغينشتاين، 1968، صفحة 15). وهو المسار الذي سار في اتجاهه العديد من الفلاسفة على غرار "كارل بوبر" Karl Popper، و"ماكس بورن" max Born حيث اعتبر هؤلاء بان المنطق الاستقرائي لا يرقى إلى مستوى العلم المنطقي الإجرائي الذي تنتهي نتائجه إلى يقين إبتيمولوجي وقد اعتبر "بورن" بأن "الاستقراء يقوم على مسألة الإيمان وهي قضية ميتافيزيقية وليست منطقية..." (بوبر، 2002، صفحة 30). ويعتبر بان مجرد أن نادى به يعني أننا خرجنا عن المنطق العلمي الذي يؤدي بنا إلى آفاق يقينية تنتج قوانين

ونظريات يمكن الاعتماد عنها في المسيرة العلمية، هذا يعني أن المهمة الإستيمولوجية تؤكد دوماً على وضع حد فاصل بين القضايا العلمية والتصورات الميتافيزيقية، وبالتالي فالأمر يؤول إلى فكرة شعورية وهذا ما كان يؤكد عنه دوماً "دافيد هيوم" بالتالي مشكلة الاستقراء مشكلة هيومية بالدرجة الأولى، كقولنا "الشمس سوف تشرق غداً"، يمكن إنكارها دوماً أن نقع في تناقض "الشمس سوف لن تشرق غداً" والحقيقة قائمة في كليهما لأن الشمس ستشرق غداً ولن تشرق غداً. وما توصل إليه "دافيد هيوم" هو "أنه ليس لدينا تبرير من الخبرة الحسية يعدُّ بمثابة معيار تجريبي يقرر صدق القوانين العلمية المبنية على أساس مشاهدات جزئية" (علي، 1985، صفحة 245) وهناك من ذهب على أبعد من ذلك، أي من اعتبار الاستقراء قضية ميتافيزيقية ليست منطقية، حيث نجد "لابلاص" p.laplace قد اعتبر قاعدة "الاستقراء الصحيح هذه أو التي صنعته ليست حتى ميتافيزيقية لأنها ببساطة لا وجود لها" (بوبر، 2002، صفحة 247). حيث أن قاعدة الاستقراء لا يمكن البتة البرهنة على صحتها منطقياً وبالتالي لا يصلح أن يكون منهجاً للبحث العلمي كما زعم رواد المدرسة التجريبية، فهو مبدأ لا يمكن تبريره لا قلبياً ولا بعدياً، فهو لا يرقى إلى مستوى القاعدة التحليلية البقينية التي تفضي لليقين المعرفي العلمي، ومن ثم فإن محاولة إسناد مبدأ الاستقراء إلى الخبرة تتحطم لأنها حتماً تفضي إلى ارتداد لا نهائي" (بوبر، منطق الكشف العلمي،، صفحة 164) بالتالي لا يمكن الخلط بين المشكلة النفسية الشعورية التي تتعلق بالذات المدركة، مع المشكلة المنطقية، كما أنه لا وجود لاستقراء يكمن الحديث عنه منطقياً، مع إمكانية اعتباره منهج افتراضي قائم على أساس اختبار الفروض ثم مراجعتها مراجعة موضوعية متعلقة بالموضوع المدرك لجملة الفرضيات التي صدقت.

كيف نحصل على فكرة العلية من انطباعات التأمل؟

وفي هذا السياق يجيب إدغار موران عن السؤال المطروح بقوله، "أنه لا يمكن الفصل بين العقل والدماع، ولا فصل الدماغ عن العقل ولا يمكن إضافة لذلك فصل العقل/الدماغ عن الثقافة، حيث لا يمكن أن يتقدم الفكر الإنساني لولا الثقافة، أي لولا اللغة والمعارف والمهارات المتراكمة في المجتمع، يتبع العقل التابع للدماغ الثقافة أيضاً، وينبغي على القواعد الرمزية واللغوية، أن تنقل إلى الثقافة كي ينطلق العقل، من هنا فالثقافة ضرورية لانطلاق الفكر وتطور الدماغ، وهما بدورهما ضروريان للثقافة والمجتمع". (morin, la méthode: la connaissance de la connaissance., 1986, p. 75) إن فكرة السببية لا تكتسب حتى من النفاذ إلى ماهيات الأشياء، لأنه إذا أخذنا الأشياء بحد ذاتها فإننا نجد أنها لا يتضمن أحدهما الآخر مطلقاً لأنها متميزة، وبالتالي مختلفة فصل بعضها عن البعض. وعليه فلا ينطوي فصل السبب عن النتيجة ولا النتيجة عن السبب على استحالة أو تناقض أبداً، "حيث يرفض ضرورة تصوّر خطي ذي بداية ونهاية، فيؤكد على الدور حيث يرتدُّ المنتج بالتأثير على السبب وينظمه، فيصبح النظام هنا دائري خطي، مما يساعدنا على معرفة جوانب الحقيقة المعقدة والمفككة وربطها ببعضها" (موران، أزمة المعرفة، عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش، 2015، صفحة 58) عموماً فإن التصوّر الخطي للعلاقة السببية سرعاً ما تمّ تجاوزه إلى المفهوم اللاخطي بناءً على التطورات التي عرفها العلم المعاصر، لا سيما فيما يتعلق بالاتصال كما أقرت ذلك نظرية الاتصال والمعلومات أو ما يتعلّق بالتنظيم الذاتي ذات الخصوصية الانبثاقية أو ما يتعلق بالأنظمة الكاوسية الفوضوية (caos) ذات المظهر العشوائي، بحيث تشكل هذه النظم حلقة بناءة تكون كل لحظة مستولدة مولدة وعلة ومعلولا في آن واحد" (موران، المنهج معرفة المعرفة، أنثروبولوجيا المعرفة، 2015، صفحة 175)

فإذا كانت التقنية أجازت تدشين الطاقات المادية، "فإنها أيضاً كرس وبشدة ذهنية تتأسس فقط على الواقع، له إنَّ منطقاً يناسب تماماً الآلات الصناعيّة ويطبق في المجتمعات التي هي ليست آلات بالمعنى المحدد والسطحي للكلمة بنفس الطريقة تجيز الصناعة إنتاج واد على شكل سلسلة غزيرة على هيئة طبقات شعبية تتزايد باستمرار" (بودريار، 2005، صفحة 171). مع ذلك وفي خضم الأزمة يجب التمسك بالأمل بنمط جديد من المجتمعات العالمية. وتقوم هذه الأخيرة على نمطية حياة وانتشاها عبر ربوع المعمورة، فنمط المراهقين اليوم له نمط خاص من ناحية اللباس وسماع الموسيقى وغيرها فاننتشر في العالم بفضل الاتصالات وسائل التّواصل، أن يفرض على العالم نمط واحد، قس على ذلك من جميع النواحي،

ما من حادثة تقع إلا ولها أسباب طبيعية أدت إلى وقوعها، والمقصود بالأسباب الطبيعية ما تعلّق بحالة المجتمع السياسية والاقتصادية والثقافية، وهنا يربط "ابن خلدون" بين حركة التاريخ ويفرزه العمران البشري من أحوال حيث يعتبر التاريخ بمثابة الخبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو العمران وما يعرض لطبيعته من الأحوال مثل التّوحش والتأنسن والعصبية، في زماننا اليوم الأمر يسيرا على أن يقدم صورة واحدة أو قل نسخة مشابهة من الأنماط التي غدت تحكم كل مجتمع.

١١. نتائج الدراسة

إن الإنسان يعتبر مجرد آلة مثل باقي الآلات التي بلغت به التّزول إلى عالم الأشياء وجعلت منه التقنية مجرد معطى مادي وجب سبر أغواره بصورة جديدة تعيد الاعتبار له ككائن مركزي لهذا الكون ومن ثم بناء منظومة إنسانية تجعل منه كائنا متماهيا مع واقعه مغيرا له

كما توصلنا إلى نقطة مهمة مفادها أن التاريخ لم يعد يرحم الإنسان ذاته سواء في العالم الغربي أم الحضارة الإسلامية المتأخرة لأن نمط التشيؤ أضى مساهما في بناء إنسان جديد وفق البراديجمات العلم الجديد خاصة بعد الحرب الباردة ونهايتها واحتلال الريادة الأحادية القطبية العالمية في بداية تسعينات القرن الماضي الذي غلبت عليه النزعة البراديجماتية وظهور إنسان نيولبرالي تائها في أكذوبة الحرية وممارسة الحياة وفق ما تمليه الذات الراغبة وليست المفكرة العاقلة

كما توصلنا ببحثنا هذا إلى ظهور مفاهيم جديدة لإنسان مجنون وفقا لمعطيات العولمة والتقنية وأصبح الإنسان يسعى لإيجاد ذاته في عالم محايتا للكل ما هو زائل وانغماس الذات المفكرة العاقلة في غيايات العمق الغريزي الذي ينفي كل ما هو معقول مما يحتاج إلى البحث عن سبل التفكير في إعادة الاعتبار للإنسان ذاته.

١٢. خاتمة:

في الأخير نستنتج بان مفهوم الحتمية عرفته العلوم الاجتماعية والإنسانية بنمطية مقارنة لما هي عليه في العلوم التجريبية ولكن ليس بالصورة نفسها كما هو عليه الحال في العلوم الإمبريقية القابلة للملاحظة والقياس التجريبي، فالإنسان محكوم بتركيبة معقدة يصعب ضبطها بشكل دقيقة ونهائي ومن ثم فان الحتمية السوسيولوجية محكومة بتنوع ثقافي ونفسي معقدين ولذلك يمكن القول بان السياقات الإجرائية التي يقوم بها العلماء في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية تنتهي إلى نتائج متفاوتة نستنتج من خلالها الأثر الواقعي للفرد حيث أن موضوع الفرد كان مغيبا في الدراسات الكلاسيكية إذا ما قرتاه بما هو عليه الحال اليوم.

ومع كل هذا فان الفرد محكوم بنمطية ثقافية وسوسيولوجية يسعى فيها الباحثين إلى فك اللبس على العلل التي تشخص الموضوعية الفردانية عبر سبل متنوعة ومختلفة.

كما أن الفهم الديني للإنسان أضى أما مهماً وضروريا لكل البشرية، فالإنسان متدين بطبعه لا يمكنه الخروج عن الدين ولا يمكنه الانسلاخ عن مُعطاه الروحاني. ليبتعد بذلك عن التقنية وعالم الأشياء مقابل تحرره من قيود الغريزة لصالح الفطر الإنسانية التي جبل عليها.

إن الإنسان الجديد ما بعد الإنسانية يبحث عن ذاته في ظل تمييع العوالم الموازية له مقابل بناء براديجمات لا إمبريقية تتجاوز الإنسان الشيعي لصالح الحوكمة الإلهية، مما يجعل من الفرد مؤسسا لذاته قاموسا مفاهيميا يعيش ضمن حقله المنطقي الأنسني مراعيًا الحتميات السُننية الفيزيائية التي تحكمه من بعده الإمبريقي ومجيباً على المسائل الفلسفية والميتافيزيقية اللاإمبريقية التي تنتابه إزاء المصير ومعاشيته لما حوله.

Bibliographie

morin, E. *Boris cyrulink dialogue sur la nature humain*. France (2015)

newton., I. , *principes mathématiques de la philosophie naturelle*. paris: traduction: marquise de castelet tome1, Albert Blanchard.(2016)

إدغار موران، *النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية* (المجلد 1). الامارات العربية المتحدة: تر. هناء صبحي ، هيئة ابو ظبي للثقافة و التراث (2013.)

إدغار موران *تربية المستقبل ، المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل* . تر. عزيز لزرق و منير الحجوجي، المترجمون (لدار البيضاء: دار توبقال(2012) . .

الخولي، بي. ط. ، *فلسفة العلم من الحتمية إلى الاحتمية*. القاهرة:، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (1989) .
القمر، يس. الآية. 49 .

المحسن، ص. عم. *(الإنسان الحائر بين العلم والخرافة*. الكويت: المجلس العلمي الوطني للثقافة والفنون والآداب(1978) . .

بوبر، بك. *(الحدوس الافتراضية والتفنيات)*، . ع. مصطفى (Trad.)، ببيروت: دار النهضة العربية. (2002)

بوبر، بك. *(منطق الكشف العلمي)*، م. ع. علي(Trad.)، الاسكندرية: الانجلوساسونية. (1987)

رزق، خ. ج. ، *(الإيمان والتقدم العلمي*. دمشق:، دار الفكر للنشر والتوزيع. (2000)

علي، م. ع. ، *المنطق ومناهج البحث* بيروت، . ، دار النهضة العربية، ب(1985) . .

فروم، إ. ، *أزمة التحليل النفسي*، ترجمة: طلال عتريسي، ع. ، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع(1988) . .

فروم، إ. ، *(الإنسان من أجل ذاته، بحث في سيكولوجية الأخلاق، ط 1)*، م. م. الهاشمي (Trad.)، منشورات الاختلاف. (2007) م.

فيدغينشتاين، إل. *رسالة منطقية فلسفية* . ع. إسلام، (Trad.)، القاهرة: المكتبة الأنجلو مصرية(1968) . .

لقاط، ص. ، *إبستمولوجيا التركيب وفلسفة التربية عند إدغار موران*. تونس: منشورات الاختلاف(2014) . .

مروة كريدي. العدد (04) عطالة المنطق ورهانات الفكر، حوار أجري معها). 166-167. سهام عبد الرحمن.، المحاور (مجلة دراسات فلسفية 2015.

نبي، م. ب. *بشروط النهضة* . القاهرة: منشورات الفكر العربي. (2000).